الكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة في مئويّتها الأُولى
الهويّة والرسالة

الأب موريس بيار مارتان اليسوعيّ*

تحتفل الكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة في السنة الجارية بذكرى تأسيسها المئويّة في العام ١٨٩٨، بعد ستين من تكوين إبرشيّاتها الثلاث الأُولى: في القاهرة، والمنيا وطيبا. ولإدراك هويّة تلك الجماعة ومكانتها ودورها في مصر، سوف نتتبّع بسرعة، في هذا المقال، المراحل التي مرّت بها إبّان السنوات المئة المنصرمة. ذلك بأنّ الكاثوليك الشرقيّين، المشاركين في الإيمان الواحد، لا يتميّز بعضهم عن بعض بالطقوس فقط، بل إنّ كلًّا من جماعاتهم تحمل في مؤسّساتها وأفرادها علامات الزمن والبيئة والظروف التي واكبت انطلاقتها ومسيرتها وتطوّرها. فعلى سبيل المثال، تتميّز الطائفة المارونيّة، التي طالما استوطنت جبال لبنان، عن الطائفة الملكيّة التي نشأت في مطلع القرن السابع عشر وفي بيئة مدينيّة بين دمشق وحلب، وسرعان ما تفرّقت في الشرق الأدنى بسبب ما واجهته من معارضات، في حين نلاحظ أنّ طائفة الأقباط الكاثوليك، التي نشأت في الحقبة نفسها وبتأثير من الحركة الإرساليّة عينها، لم تستكمل تنظيمها إلاّ بعد نحو قرنين من الزمن[١].

(*) باحث في الشؤون المصريّة.

(١) أطلب: B. Heyberger, *Les Chrétiens du Proche-Orient au temps de la Réforme catholique*, Ecole Française de Rome, 1994.

يرقى أوّل ذِكر للأقباط الكاثوليك إلى العام ١٧٢٢ في صعيد مصر، وعلى وجه التخصيص في أخميم، حيث تركّزت، إلى جانب جرجا، إرساليّة الرهبان الفرنسيّين منذ أواخر القرن السابع عشر. وبعد عشرين سنة، في منتصف القرن الثامن عشر، تحوّل مطران الأقباط الأرثوذكس في القدس إلى الكنيسة الكاثوليكيّة فكان أوّل أساقفتها الأقباط، سوى أنّه لم يبرح القدس أبدًا... إلاّ أنّ إرساليّة الفرنسيّين راحت تنمو بخَفَر، لا سيّما نواحيَ أسيوط وطهطا حيث يكثر الأقباط، وتوالى على رأس الجماعة عدد من النوّاب الرسوليّين لم ينل معظمهم الرسامة الأسقفيّة، وكان آخرهم كيرلّس مقّار، العامَ ١٨٩٥، وقد رُسم مطرانًا على القاهرة في السنة التالية، ثمّ أصبح أوّل بطاركة الطائفة.

أوّلًا: البدايات

ماذا دفع الحبرَ الأعظمَ لاوون الثالث عشر، الذي أصدر رسالته العامّة في كرامة الكنائس الشرقيّة (*Orientalium Dignitas*) العامَ ١٨٩٤، إلى أن يتّخذ قراره المذكور أعلاه في شأن الكنيسة القبطيّة؟ لا بدّ، لفهم تلك البادرة، من التذكّر بأنّ مصر كانت آنذاك في أوج عمليّة تحديثها على جميع الصعد: الثقافيّ، والاجتماعيّ والاقتصاديّ، بتأثير من الحضور الأوروبّيّ الذي تجلّى، فيما تجلّى، بالمنافسة السياسيّة بين فرنسا وإنكلترا، ممّا أفضى إلى احتلال مصر على يد الإنكليز في العام ١٨٨٢. وكان من نتائج هذا الانفتاح على العالم أن ازدهر عمل الإرساليّات لا سيّما في التربية. فقد أسّس المشيخيّون الأميركان، الموجودون في مصر منذ ١٨٥٤، مستشفى ومدرسة إكليريكيّة في أسيوط العام ١٨٦٦، ومن تلك المدينة كانوا ينتشرون في الصعيد كلّه حيث أسّسوا أغليّة مدارسهم وقد بلغ عددها في العام ١٨٨٠ أربعين مدرسة. وفي ١٨٧٧ أُنشئت النيابة الرسوليّة اللاتينيّة في الدلتا وسُلّمت أمورها إلى جمعيّة الإرساليّات الإفريقيّة في ليون. وفي ١٨٧٩، طلب لاوون الثالث عشر إلى اليسوعيّين تأسيس إكليريكيّة صغرى في القاهرة ليُعِدّوا فيها طلاّب الإكليريكيّة الشرقيّة

في بيروت حيث كانت تتمّ تنشئة أغلبيّة الكهنة المصريّين، ومنها تخرّج الأساقفة الأقباط الكاثوليك الثلاثة الأول. وفي ١٨٨٧، أراد اليسوعيّون أن يقتربوا من الأماكن التي فيها تنشأ دعوات إكليريكيّيهم، فافتتحوا في مدينة المنيا ديرًا كانوا ينطلقون منه إلى المدن الصغرى والقرى المجاورة حيث كانوا يؤسّسون المدارس لمناهضة تأثير البروتستانت. وختامًا، أسّست في العام ١٨٩٩، بطيطا، إكليريكيّة الأقباط الكاثوليك الكبرى.

وعليه فالزمن الممتدّ بين ١٨٨٠ و١٩٠٠ هو الزمن الحقيقيّ الذي فيه تمّت فعليًا إعادة تأسيس طائفة الأقباط الكاثوليك، وقد أخذت تنمو باطّراد منذ تلك المدّة، منطلقةً على وجه الخصوص في الصعيد. ففي البداية، لم يكن لأبرشيّة البطريركيّة، الممتدّة على نصف مساحة البلاد، سوى كنيسة في القاهرة، بمحلّة درب الجنينة، قدّمها رهبان التدّيس فرنسيس، ومصلّى في المنصورة، بالإضافة إلى الكنيسة البطريركيّة في الإسكندريّة التي بُنيت العام ١٩٠٣. أمّا إبرشيّة المنيا في الصعيد فكانت تشمل أكثر من عشر رعايا، وإبرشيّة طيطا أكثر من عشرين. لذا أنشئت الإكليريكيّة الكبرى في المدينة الأخيرة هذه[٢].

وفي ما يلي جدول مقتبس من الإحصاءات العشريّة الثلاثة الأوّل التي تمّ فيها تعداد سكّان البلاد، ويمكن من خلاله تبيّن نموّ الطائفة:

---

(٢) إنّ صغر حجم الإبرشيّة البطريركيّة في مقابل كبر إبرشيّتي الصعيد يُفسّر إلى حدّ ما الأزمة التي قامت عام ١٩٠٨ فاستقال البطريرك كيرلّس مقّار لأسباب يغلب الظنّ أنّها كانت ماليّة وإداريّة، وقد زالت تلك الاستقالة مواجهات لم تخلُ من العنف بين أعضاء الطائفة في القاهرة. وبعد انتماء مقّار ملّةً وجيزة إلى الأرثوذكسيّة الملكيّة، تصالح مع روما في ١٩١١ وعاش عيشة متواضعة في لبنان حيث توفّي عامّ ١٩٢١. وقد أعيد رفاته إلى القاهرة ودفن فيها باحتفال رسميّ (راجع: الأنبا يوحنّا كابس: الأنبا كيرلّس مقّار، القاهرة، ١٩٢٧).

الجدول الأوّل

تعداد الأقباط الكاثوليك بين ١٨٩٧ و١٩١٧

	١٨٩٧	١٩٠٧	١٩١٧[٣]
القاهرة	٤٨٩	٣٠٢٦	
الإسكندريّة	١٠١	٣٩١	
الدلتا	٨٠	٨٥٥	
الصعيد			
الجيزة	٠١	١٠٥	
الفيّوم	١٤	٦١	
بني سويف	٣٥	٧٧	
المنيا	١١١	١٧٢٢	٤٢٣١
أسيوط	٤١٨	٤٣٥٢	٦١٥١
جرجا	٩٢٦	٢٧٦٢	٥٧٧٢
قنا	٢٥٤	١١٣٠	٢٥٥٤
مجموع الصعيد	١٧٥٩	١٠٢٠٩	
المجموع العامّ	٢٤٢٩	١٤٤٨١	

نستنتج من الجدول السابق أوّلًا أنّ الأقباط الكاثوليك كانوا في الدلتا قليلين جدًّا، إذا ما قُورنوا بمَن كانوا في الصعيد. والأقباط عامّة

(٣) لم يميّز إحصاء ١٩١٧ بين الأقباط الكاثوليك وسواهم من أعضاء الكنائس الكاثوليكيّة. لذا لم نذكر سوى الأرقام الخاصّة بمحافظات الصعيد حيث أغلبيّة الكاثوليك الساحقة هي من الأقباط.

ويلاحظ إحصاء ١٨٩٧ أنّ البروتستانت الأقباط كانوا موزّعين في البلاد على النحو التالي: القاهرة: ٨٢؛ الإسكندريّة: ٥٠؛ الدلتا: ٥٦؛ الصعيد: ٨٨٠٩.

ليسوا في الدلتا إلاّ نحو ٢٪. ثمّ نلاحظ نموّ عدد الكاثوليك السريع بين ١٨٩٧ و١٩٠٧، ثمّ تباطؤ هذا النموّ بين ١٩٠٧ و١٩١٧[٤]. ولئن ازداد عدد الكاثوليك بالقاهرة في العام ١٩٠٧ فسبب ذلك عاملُ النزوح باطّراد من الريف إلى المدينة.

ثانيًا: التطوّر

إنطلاقًا من بدايات الطائفة، يمكننا محاولة رسم أهمّ مراحل تطوّرها، وقد كان لها دور أساسيّ في تكوين هويّتها الراهنة. فثمّة، وفي مرحلة أولى، عمليّة التأسيس أو، بعبارة أوضح، عمليّة قيام المؤسّسات، تجلّت في ازدياد عدد الرعايا وبالتالي ازدياد عدد الإبرشيّات لتأمين خدمة المؤمنين على نحوٍ أفضل. ورافق نموَّ المؤسّسات الكنسيّة تحرّرُ الإكليرُس الإبرشيّ المتزايد من مساعدات الرهبانيّات الإرساليّة، كانت أولى مظاهره العمليّة إنشاءُ إكليريكيّة طيطا. ثمّ برزت مرحلة الاستيعاب - أو الاستقرار - إذ أخذت الطائفة تنمو نموًّا طبيعيًّا غير مرتبط بالعبور من الأرثوذكسيّة إلى الكاثوليكيّة كما حصل في البدايات، فالبنويّة الثقافيّة والدينيّة باتت أمرًا راهنًا. وأخيرًا اتّسمت الطائفة بنزعة قويّة إلى التمدين، تسارعت وتيرتها منذ خمسين سنة، وهي وإن كانت من الظواهر التي تتجلّى عند جميع الطوائف، إلاّ أنّها تلاحَظ خاصّةً عند الأقلّيّات، فهي مدفوعة، أكثر من الجماعات الأُخرى، إلى الهروب من عزلة القرى وصرامة التقاليد فيها إلى سعة رحاب المدينة. والإبرشيّة البطريركيّة هي، من هذا القبيل، مثال يستحقّ معالجة خاصّة.

---

(٤) يمكن مقارنة هذه الأرقام الرسميّة (التي يصعب الشكّ في صحّتها لأنّ الإدارات كانت آنذاك في عهدة الإنكليز وهم غير منحازين في الشؤون الدينيّة) بالأرقام التي كان المرسَلون والأساقفة يقدّمونها في ذلك الزمن، وغالبًا ما كانوا يبالغون فيها (أطلب M. Martin, «Les Coptes Catholiques 1880-1920», dans *Proche-Orient Chrétien* 40, pp 33-55).

١- الرعايا والإبرشيّات في الصعيد

لقد بيّن الجدول السابق أنّ ازدياد عدد الكاثوليك حصل أوّلًا في إبرشيّتي المنيا وطيبطا، وعلى نحوٍ أدقّ، إذا ما اطّلعنا على تفاصيل أرقام الرعايا، من المنيا صُعُدًا إلى نواحي سوهاج: إنّها منطقة الصعيد، حيث كثافة المسيحيّين هي الأعظم. وأغلب الرعايا الأولى، التي أُسّست بين ١٨٩٠ و١٩١٥، نشأت في إثر مبادرات قام بها قسّ أو حتّى جملة سكّان بعض القرى الأرثوذكس مطالبين، وعلى رأسهم كاهن الرعيّة أحيانًا، بمدرسة لأبنائهم. وكانوا من أجل ذلك يتحوّلون إلى الكثلكة، وكثيرًا ما كانت المدرسة تقوم مقام الكنيسة أو الكنيسةُ مقام المدرسة، إلاّ أنّ ظاهرة تأسيس المدارس - الكنائس هذه بفضل مساعدات المرسلين، توقّفت إبّان الحرب الكونيّة العالميّة الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، ثمّ عادت ببطء بين ١٩٢٠ و١٩٤٠ وازدهرت مع إنشاء الجمعيّة الكاثوليكيّة لمدارس الصعيد في العام ١٩٤٠.

وعليه فإنّ نموّ الطائفة الكاثوليكيّة تمّ أوّلًا على حساب طائفة أرثوذكسيّة أضعفتها، في أثناء حبريّة البطريرك كيرلّس الخامس التي طال أمدها (١٨٧٤-١٩٢٥)، انقساماتٌ داخليّة بين جماعة من العلمانيّين العصريّين تريد إثبات وجودها من خلال المجلس الملّيّ، وإكليرس تقليديّ محدود الثقافة. بيد أنّه ما عتّمت أن راحت بعض الجمعيّات العلمانيّة الأرثوذكسيّة تنشئ المدارس بدورها، وكان من انتشار المعاهد البروتستانتيّة والكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة أن قَطَع الأقباط في الميدان الثقافيّ شوطًا ملموسًا جعلهم يتقدّمون على مواطنيهم غير المسيحيّين، ممّا يفسّر تأثيرهم، منذ السنوات ١٩١٠-١٩٢٠ في الوظائف العامّة والمهن الحرّة، تأثيرًا يفوق ما يُنتظر من نسبتهم بين مجموع السكّان.

ولئن أُسّست أولى المدارس والكنائس خاصّةً في القرى الصغيرة المعزولة، فقد تبدّل الوضع بدءًا من ١٩٤٠، إذ مالت الكفّة نحو المدن المركزيّة أمثال بني مزار وسمالوط وديروط وصِدفا... حيث تدفّق

المهاجرون من الريف. غير أنّ تمركز الكثلكة هذا لم يتمّ إلاّ في مناطق معيّنة وانطلاقًا من محاور إشعاع محدودة، كمثل المنيا وأبي قرقاص وأسيوط وطهطا، في حين ظلّت مناطق أخرى، حيث الوجود الأرثوذكسيّ كثيف، كمثل صَنْبُو وأبْنُوب، بمنأى عن هذه الحركة. ويمكن اختصار عمليّة تطوّر الطائفة، انطلاقًا ممّا توفّره طبعات دليل الكناس الكاثوليكيّة في مصر، بالجدول التالي:

الجدول الثاني

رعايا الأقباط الكاثوليك

	١٩٢٠	١٩٤٦	١٩٧٥	١٩٩٦
الإبرشيّات				
البطريركيّة (١٨٩٦)	٥	١١	٣×٣٠	٤×٤١
الإسماعيليّة (١٩٨٣)				٤+١×٦
المنيا (١٨٩٦)	١١	٢+١٢	٣×٢٣	١×٢٦
طهطا (١٨٩٦)	٢٥	٣١		
أسيوط (١٩٤٧)			٨+٢×٣٤	١+٣×٣٧
سوهاج (١٩٤٩)			١٠+٤×٣٢	١+١٨
الأقصر (١٩٨٢)				١١×١٧

+ = إضافة كنيسة يخدمها كاهن رعيّة أُخرى

× = إضافة رعيّة يخدمها راهب.

يُضاف إلى الإبرشيّة البطريركيّة ٨ كنائس: ٢ في أوروبّا، ٢ في أوستراليا، ٢ في كندا، ٢ في الولايات المتّحدة.

يتّضح ممّا سبق أنّ النموّ حصل أوّلًا في الصعيد. في ١٩٤٧ كانت إبرشيّة طهطا تشمل كلّ وادي النيل من ملّاوي حتّى أسوان، فنُقل كرسيّها

إلى أسيوط، مركز إرساليّة الفرنسيّين وعاصمة الصعيد. ثمّ شُطرت فنتج عن ذلك إيرشيّة سوهاج في العام ١٩٤٩، وشُطرت هذه بدورها العام ١٩٨٢ عند تأسيس إبرشيّة الأقصر. وهذه الإبرشيّة، وإن تكن أوسعَ مثيلاتها مساحةً، إلاّ أنّها أقلّها من حيث عدد الرعايا، لضعف كثافة المسيحيّين في الصعيد الأقصى، ولأهمّيّة دور المرسلين فيها[د].

ويلاحظ أيضًا من الجدول السابق استقرار توسّع الطائفة. فلئن تضاعف عدد الرعايا بين ١٩٤٦ و١٩٧٥ في أسيوط وسوهاج، فمردّ ذلك إلى أنّ بعض المراكز في القرى جُعِلَ رعايا مستقلّة بسبب تكاثر رجال الإكليرس، وهذا ما ندر بين ١٩٧٥ و١٩٩٦. وعلى العكس، فالإبرشيّة البطريركيّة بدت في حالة نموّ مستمرّ على امتداد السنوات الخمسين الأخيرة، ممّا يتطلّب تفسيرًا سريعًا.

٢- الإبرشيّة البطريركيّة

رأينا في أعلاه أنّه لم تشمل تلك الإبرشيّةُ في مطلع القرن سوى ثلاث كنائس. وفي العام ١٩٢٠ أُنشئ فيها اثنان بالقاهرة، ثمّ ازداد العدد بقيام أربع أُخَر في العام ١٩٤٦ بأحياء أخذت رقعتها تتّسع مع وصول الوافدين من الصعيد: شبرا، الشَرَبيّة، القُلّلي، الزيتون، الفجّالة، وطبعًا مصر الجديدة. وحصل مثل ذلك في الإسكندريّة بمحلّة غيط العنب، ثمّ برزت طنطا وهي كبرى مدن الدلتا. في المقابل، كان الفرنسيسيّون في ١٩٤٦ لا يزالون يدبّرون أمور ١٩ رعيّة لاتينيّة: ٣ في القاهرة، ٦ في الإسكندريّة، ٤ في مدن الدلتا، و٦ على ضفاف قناة السويس، في حين يتولّى كهنة الإرساليّات الإفريقيّة ١١ رعيّة: ٥ في القاهرة و٦ في الدلتا. وكان الدليل الكاثوليكي، في طبعة ١٩٤٦، يقدّر عدد بعض طوائف

(د) ويُلاحَظ من الجدول السابق أنّ كراسيّ الأسقفيّات أضحت في السنوات الأخيرة في عواصم المحافظات، حيث الحضور مهمّ والظهور مستحبّ. ومن هذا المنطلق تطابقت حدود الإبرشيّات وحدود المحافظات ممّا يفسّر أنّه، في العام ١٩٩٠، نُقل مركزا ملاّوي ودير مَوّاس من إيرشيّة أسيوط إلى إيرشيّة المنيا. ولا يستثنى من القاعدة هذه إلاّ إيرشيّة الأقصر التي تشمل محافظتي قنا وأسوان.

الكاثوليك بمصر على النحو التالي: ١١٨,٠٠٠ لاتينيّ - ومعظمهم في القاهرة والإسكندريّة والدلتا -، و٦٠,٠٠٠ قبطيّ وغالبيّتهم تعيش في الصعيد.

بيد أنّ هذا الواقع أخذ يتبدّل جذريًّا في الخمسينيّات، لا سيّما بسبب رحيل الأجانب الكثيف بدءًا من ١٩٥٦. فمن جرّاء الهجرة هذه تدنّى عدد المدبّريّات الرسوليّة اللاتينيّة من ثلاث مدبّريّات (مصر الجديدة، الإسكندريّة، القناة، وكانت معظم الإرساليّات مرتبطةً بها) إلى اثنتين، ثمّ إلى واحدة في وقتنا الحاضر. واستمرّ إنشاء رعايا قبطيّة في أحياء القاهرة الآخذة بالتوسّع: الجيزة، إمبابة، شُبرا الخيمة، عزبة القُصيرين، المطريّة، عين شمس، وفي مثيلاتها من أحياء الإسكندريّة: باقُوس، سيدي بِشْر، الحضْرة، في حين انتقلت جميع رعايا الإرساليّات الإفريقيّة بالدلتا إلى الإبرشيّة البطريركيّة، وحصل الأمر نفسه في ما يتعلّق برعايا القناة، ممّا أفضى إلى تأسيس إبرشيّة الإسماعيليّة في العام ١٩٨٣.

وفي الوقت الحاضر تضمّ الإبرشيّة البطريركيّة ٢٠ رعيّة في القاهرة، ١٠ في الإسكندريّة، ٥ في مدن الدلتا، يضاف إليها ٣ في مراكز محافظات مرسى مطروح، بني سويف والفيّوم - علمًا أنّ الرعيّتين الأخيرتين اقتُطعتا من إبرشيّة المنيا - و٣ في مدن صغيرة إلى شمال غرب القاهرة. واستَوجَب هذا النموّ إقامة أسقف معاون لمحافظات الجيزة والفيّوم وبني سويف في العام ١٩٨٨.

إنّ الإبرشيّة البطريركيّة أنموذج واضح تبدو من خلاله كيفيّة نموّ طائفة الأقباط الكاثوليك: فتوسّع المؤسّسة، والاستقلال عن الرهبانيّات الإرساليّة، وخاصّة الانتقال إلى المدن، هي ظواهر ثلاث كانت في أساس تكوين هذه الإبرشيّة وسواها من الإبرشيّات. إلاّ انّ ازدياد عدد الرعايا لا يعني ازدياد نسبة الأقباط الكاثوليك في مصر، إذ إنّه خاصّةً نتيجة النزوح من الريف إلى المدينة.

ثالثًا: اليوم

أمّا اليوم، وانطلاقًا من مسيرة طائفة الأقباط الكاثوليك الراهنة، فنتساءل: ما هي سماتها الخاصّة التي تُبرز هويّتها، وبالتالي تحدّد مكانتها ودورها في خدمة مسيحيّي البلاد وخدمة مصر على حدّ سواء.

أوّلًا، لا بدّ من ملاحظة ضآلة وجودها. فكم هم الأقباط الكاثوليك اليوم في مصر؟ وأكاد أقول: كم هم «الكاثوليك» جميعًا؟ لأنّ عديدَ أبناء سائر الكنائس الكاثوليكيّة هو، بالنسبة إلى نظيره في الكنيسة القبطيّة، قليلٌ جدًّا. فالدليل الكاثوليكيّ (طبعة ١٩٩٦) يعرض رقمًا مدوّرًا هو ٢٠٠,٠٠٠، أمّا التحليلات الديمغرافيّة فتميل إلى حصره بحوالى ١٥٠,٠٠٠[٦]. وهذا الفرق غير كبير إذا ما لُوحِظ أنّ الأقباط الأرثوذكس هم، بحسب إحصاء العام ١٩٩٦، ٣,٣٤٠,٠٠٠ في حين يقدّرون أنفسهم بنحو ثلاثة أضعاف هذا العدد. ومهما يكن فإنّ الكاثوليك هم أقلّيّة صغيرة جدًّا ضمن جماعة الأقباط، وهذا ما لا يسهّل العلاقات المتبادلة.

فالكاثوليك، في نظر الأرثوذكس، هم «خوارج يخالفون الطبيعة»، تركوا كنيستهم في زمن ضعفها بتأثير من الغرب المستعمر. أمّا اليوم، فيشهد الأرثوذكس نهضة ملحوظة انطلقت منذ أن تبوّأ البابا كيرلّس السادس (١٩٥٩-١٩٧١) سدّة البطريركيّة. وهم ينشئون الكثير من الإبرشيّات الجديدة، ويبعثون أديرتهم وقد رُمّمت وازدهرت بأعداد كبيرة من الرهبان خرّيجي الجامعات يُذكون شعلة روحانيّتهم العريقة. وتتجلّى هويّتهم المتجدّدة من خلال عنايتهم بتربية النشء الدينيّة في «مدارس الأحد»، وهي حركة علمانيّة مزدهرة ناشطة، وفي حجّ الرعايا المستمرّ إلى الأديرة، وفي وفرة المنشورات التي تروي سير قدّيسي مصر وعجائبهم فتُروي عطش الجماهير وتغذّي حياتهم الروحيّة. وبوجيز الكلام، إنّ

---

(٦) R.G. Roberson, *The Eastern Christian Churches*, Rome, 1988. «The Christian Communities in the Middle East», *XXI Secolo*, n°6, oct. 1996, Torino.

الأرثوذكس «مرتاحون لأوضاعهم» وقد استعادوا هويّتهم، ولا يشعرون بالحاجة إلى توجيه أنظارهم نحو نظرائهم الكاثوليك أو البروتستانت.

ومن المعروف في هذا السياق أن تكون علاقات جميع الكنائس الأرثوذكسيّة الوطنيّة - كمثل كنيسة أوكرانيا أو كنيسة اليونان - بمواطنيها الكاثوليك، متوتّرة، في حين هي طبيعيّة مع الكنائس الأرثوذكسيّة الأُخرى. وعليه فاجتماعات اللجنة اللاهوتيّة المشتركة بين الأقباط الأرثوذكس والكاثوليك، وهي لجنة كانت رسميّةً أكثر منها فعليّة، باتت مجمّدة منذ العام ١٩٩٣. ومن أسباب توقّفها إجراءٌ فيه من التميز والرفض ما يصعب قبوله، إذ يُفرض، في حال زواج مختلط، أن يُعاد تعميد الفريق الكاثوليكيّ بحسب الطقس الأرثوذكسيّ. إلاّ أنّ بعض الاتّصالات ما زالت قائمة لمناسبة اللقاءات المسكونيّة الكثيرة، كمثل ما يتمّ عن طريق «مجلس كنائس الشرق الأوسط» (CEMO) أو «تجمّع المعاهد اللاهوتيّة في الشرق الأوسط» (ATIME) حيث تتحاور مختلف الطوائف الأرثوذكسيّة والكاثوليكيّة والبروتستانتيّة.

وفي المقابل، ما هي نظرة الأقباط الكاثوليك إلى طائفة الأرثوذكس؟ يمكن القول إنّها تبدّلت على نحوٍ ملحوظ. ففي البدايات ساد توجيه الانتقاد الشديد إلى الخرافات الشعبيّة وجهل الإكليرُس في مقابل تجدّد الكاثوليك - تجدّدًا متأثّرًا بروافد اللاتين والغرب - وممارساتهم التقويّة كالتقرّب المتواتر من الأسرار، وممارسة طقس «المناولة الأولى» وتلاوة السبحة وإكرام القلب الأقدس وما إلى ذلك. ثمّ حصل تحوّل، يعود الفضل فيه خاصّة إلى المطران ألكسندرس إسكندر، أوّل مطران على أسيوط، فكانت عودة إلى مزيد من الأصالة القبطيّة وتبنّي تقاليدها، لا سيّما من جهة الطقوس. وعلى سبيل المثال وفي ما يتعلّق بالأعياد المتحرّكة، أُهمل التقويم الغريغوريّ الذي أدخله البطريرك مقّار، وعُمِل مجدّدًا بالتقويم الوطنيّ اليوليانيّ.

ولمّا شرّع المجمع الفاتيكانيّ الثاني أبواب الانفتاح المسكونيّ،

وقامت العلاقات المباشرة بين روما والبطريركيّات الأرثوذكسيّة، وهي مبادرات خفّفت إلى حدّ معيّن وظيفة الوساطة المنوطة مبدئيًا بالكنائس «المتّحدة»، ساد التردّدُ، مدّةً من الزمن، حول هويّة الأقباط الكاثوليك. بيد أنّ التشنّج الذي طرأ على العلاقات بين الكنيستين الشقيقتين بفعل مواقف البطريرك شنوده الثالث، بدّد التردّد، وصار الكاثوليك بدورهم «مرتاحين لأوضاعهم»، ينصرفون بالدرجة الأولى إلى خدمة أبناء ملّتهم.

وفي الواقع تختلف الجماعة الكاثوليكيّة عن شقيقتها الأرثوذكسيّة من عدّة أوجه. أوّلها أنّ رجال الإكليرس فيها هم بأغلبيّتهم عازبون، خلافًا للتقليد الشرقيّ. ثمّ إنّه ليس عند الكاثوليك أديرة، وهذا الأمر بمكان من الأهمّيّة إذا أخذنا بعين الاعتبار تأثير الروحانيّة الرهبانيّة في التقليد القبطيّ. كما أنّه ليس عند الكاثوليك من تكريم شعبيّ للقدّيسين المحلّيّين[٧]. يضاف إلى ذلك، وبفضل انفتاح الكاثوليك على العالم وارتفاع نسبة وجودهم في المدن، مشاركتهم في بعض مسارات «الحداثة» الدينيّة. وهذا الأمر ملموس في تنشئة الإكليرس بإكليريكيّة المعادي الكبرى (راجع مجلّة صديق الكاهن التي تصدرها هذه الكلّيّة) وفي معهد العلوم الدينيّة العالي ومعهد التعليم الدينيّ بالسكاكينيّ، وكلّ من المؤسّستين الأخيرتين تسعى بالأولويّة لتنشئة الرهبان والعلمانيّين الملتزمين. وهذا الانفتاح ظاهر أيضًا في الإعلام الذي توفّره للطائفة مجلّات مثل رسالة الكنيسة أو الصلاح. فلا شكّ أنّ قراءة الكتاب المقدّس قراءةً منفتحةً على العلوم التفسيريّة الحديثة، والاطّلاع على الأبحاث اللاهوتيّة المعاصرة، والتفكير في القضايا الثقافيّة والاجتماعيّة التي تواجه الأمّة وعالم اليوم، هي ميزات تتّسم بها طائفة الأقباط الكاثوليك. وينتج من ذلك أسلوب عبادة معتدل في مظاهره الخارجيّة: لا حفلات «مولد»، لا كثرة عجائب أو مناسك حجّ أو تكريم أيقونات، بل

---

(٧) يلاحَظ في هذه الأمور شيء من التطرّف، إنْ لفتح باب الكهنوت أمام بعض العلمانيّين المتزوّجين، أو لإقامة مزارات للقدّيسين في عدد من الرعايا.

تركيز على الإفخارستيّا وعلى إكرام السيّدة العذراء لا سيّما من خلال «الجيش المريميّ».

وفي ما يختصّ بالتعليم، سبق أن نوّهنا بدور المدارس، تلك الخدمة الاجتماعيّة الأساسيّة، في تطوّر الطائفة القبطيّة الكاثوليكيّة. فالمدرسة، وإن لا يمكن اعتبارها «نشاطًا راعويًّا» بالمعنى الحصريّ، هي خدمة تؤدّيها الجماعة وتساعد على إدراك الاحتياجات المشتركة بين الجميع. لذا قامت الجمعيّة الكاثوليكيّة لمدارس الصعيد، فأخذت على عاتقها مدارس الإرساليّات والإبرشيّات بدءًا من ١٩٤٠، وما زالت حتّى اليوم تدير نحو ثلاثين منها. إلاّ أنّها، نظرًا إلى اتّساع نطاق الخدمات الاجتماعيّة التي أُضيفت إلى النشاطات المدرسيّة، اضطرّت إلى تبديل اسمها فأصبحت «جمعيّة الصعيد».

وفي المجال نفسه، إنّ أوّل جمعيّة رهبانيّة نسائيّة قبطيّة «راهبات قلب يسوع المصريّات»[٨]، اللواتي انطلقن عامَ ١٩١٣ في طيطا بعد انفصالهنّ عن جمعيّة «راهبات قلبَي يسوع ومريم الأقدسَيْن» اللبنانيّة المنشأ عندما قرّرت إغلاق مدارسها في مصر، يُشرفنَ اليومَ على تسع مدارس، إحداها في تونس، ويؤمِّنَّ إلى ذلك خدمات اجتماعيّة في ستّ رعايا، إثنتان منها في السودان. وقد شجّع الأساقفة هذا التطوّر الملحوظ وباركوه.

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى ما طرأ أيضًا من تطوّر في رهبانيّات الرجال والنساء الموجودة الآن بمصر، ولا يخفى ما كان لها من تأثير في نشأة الكنلكة وتطوّرها. فمع حلول الناصريّة ورحيل الأجانب، أخضعت نفسها لعمليّة «تمصير» جذريّة، أي أنّها زادت عدد أعضائها المصريّين، وركّزت نشاطها يومًا بعد يوم على خدمة أشدّ الناس حرمانًا قبل سواهم. وكثير منها، نحو عشرون، فتحت لهم دارًا للابتداء في مصر، ولا يندر أن

---

(٨) هي «الأولى» لأنه، في العام ١٩٦٩، انفصل عنها فريق من الراهبات اتّخذنَ اسم «راهبات يسوع ومريم القبطيّات»، ونشاطهنّ شبيه بنشاط الجمعيّة الأمّ.

يفرع أبواب تلك الأديرة شبّان وشابّات أرثوذكس يجذبهم نمط الحياة الرهبانيّة الرسوليّة الذي ما زال غير مألوف عند الأرثوذكس[٩]. كما أنّها وسّعت نشاطها، وكان قبلًا يكاد أن ينحصر في الأوساط الميسورة بالقاهرة والإسكندريّة، باتّجاه القرى أو الأحياء الشعبيّة في المدن، ملتزمةً الخدمات الاجتماعيّة من مستوصفات، ومحو الأمّيّة، وإصلاح شؤون المرأة، وتنشئة مهنيّة، ونشاطات للشباب وما يشبهها، وكلّ ذلك بانفتاح على الجميع.

وكان من هذا التطوّر في حقلَي التعليم والنشاط الاجتماعيّ عند الكاثوليك، أنّه ساهم في تكوين علمانيّين ملتزمين دينهم المسيحيّ ومنفتحين، يختلفون إلى حدّ ما في ذلك عن نظرائهم الأرثوذكس المركّزين جهودهم بالدرجة الأولى على طائفتهم، إلاّ أنّهم بدأوا يتحوّلون هم أيضًا من هذا القبيل. ومثل هذا الانفتاح يدفع إلى تجاوز الحدود الطائفيّة للقيام بنشاطات دينيّة واجتماعيّة مشتركة، إذ يدرك جميع الأطراف القضايا التي تهمّ الوطن فيسعون معًا لاستجلاء السبل الكفيلة بحلّها. ويغلب الظنّ أنّ مثل هذا الاختبار، في مثل الأوساط هذه، سيساهم في متابعة العمل المسكونيّ والحوار بين المذاهب والأديان في مصر، على غرار ما هو حاصل في سواها من البلدان.

نقله إلى العربيّة

الأب كميل حشيمه

---

(٩) يذكر هنا بنوع خاصّ إقليم الفرنسيّين في مصر الذي يستقبل في معهده الإكليريكيّ بالجيزة دعوات من السودان.